

كيف رأى الرحالة الأجانب مكة؟



• الكعبة المشرفة قديماً

والجزء الرئيسي من المدينة يقع في العرض الأكبر للوادي أما الجزء الأضيق فعبارة عن صفوف من البيوت والمتاجر المتفرقة والمدينة نفسها تغطي مساحة نحو ١٥٠٠ خطوة طولاً من الحي المسمى «الشبيكة» إلى أقصى «المعلاة» غير أن مساحة الأراضي الواقعة تحت سيطرة مكة من الحي المسمى «جرويل» حيث دخل جدة إلى الحل المسمى «المعابدة» على طريق الطائف تبلغ ٣٥٠٠ خطوة ويتراوح ارتفاع الجبال المحيطة بهذا الوادي ما بين ٢٠٠ و ٥٠٠ قدم.

قبل تشييد المدينة كان الوادي يلقب بوادي مكة أو بكة كما أسماها العرب وتقع السلسلة الرئيسية على الجانب الشرقي للمدينة وينحدر الوادي جنوباً حيث الحي المسمى «السفلة» «المكان المنخفض» وتتساقط مياه الأمطار نحو جنوب المسفلة في الوادي المفتوح المعروف بوادي «الطرفين».

بعض منازل المدينة مشيدة على جوانب الجبال خاصة السلسلة الشرقية حيث المساكن البدائية لقرية ويبدو أن المدينة القديمة كانت هناك.

مكة مدينة لطيفة التصميم شوارعها بصفة عامة أعرض من شوارع المدن الشرقية ومنازلها شامخة مبنية من الأحجار والنوافذ العديدة المطلة على الشارع توحى بانطباع أكثر حيوية من مثيلاتها في مصر وسوريا وقليل من النوافذ يتجه إلى الخارج «مشرقيات» ومثل مدينة جدة فإن مكة تحوي عدداً من المنازل ذات الطوابق الثلاثة قليل منها مطلي باللون الأبيض وفي جدة يفضل اللون الرمادي أكثر من اللون الأبيض المتوهج الذي يؤدي العين!

ويمكن تفسير سبب عدم وجود مبان أثرية في مكة بتساقط الأمطار المدمرة بغزارة ولفترة أقصر من البلاد الاستوائية الأخرى والمسجد نفسه شهد إصلاحات عديدة في عهده متعاقبة لبعض السلاطين كما يمكننا القول إن البناء الحالي هو بناء حديث وبالنسبة للبيوت فلا اعتقد بوجود بيت قد مضى عليه أكثر من ٤ قرون وبالتالي لا يمكن لرؤيتنا هذا المكان أن يشاهد أبنية عربية جميلة ومثيرة كالتي تستحوذ على الإعجاب في سوريا ومصر والمغرب وإسبانيا.. بل في هذا المجال تتفوق اصغر المناطق الريفية بسوريا ومصر على مدينة مكة الشهيرة.. وأعتقد كذلك أن المدن اليمنية هي أيضاً فقيرة نسبياً فيما تملكه من أطلال وآثار معمارية.

مكانان بداخل مكة ينساب فيهما الماء القادم من خلال المجرى المائي المذكور عبر قنوات صغيرة يحرسها بعض العبيد التابعين للشرية حيث يقومون بتحصيل ضريبة ممن يأتي ليملا قريبته وفي موسم الحج تحيط بهذه القنوات نهارة وليلا جموع تحتشد وتتساجر فيما بينها من أجل الحصول على قدر من الماء! وقد صرف «قايتباي» سلطان مصر أموالاً طائلة من أجل إصلاح الممر المائي كما خصص «قاصوه الغوري» آخر الملوك الشركاسة بمصر مبلغاً للصراف عليها عام ٩١٦ هـ. وكثيراً ما يطلب المنتسولون والحجاج المرضى شربة من الماء العذب من المارين بشوارع مكة أو حيث يقفون بالقرب من منصات المياه التي تراها في كل زاوية ويمكن الحصول على ملء إناء من الماء ببارة واحدة في الأيام العادية أما في موسم الحج فيرتفع ثمنها إلى بارتين.

المرحة التي نراها في بلاد الشرق الأخرى! وكما هو معتاد في مناسبة هذا العيد قمت بزيارة إلى القاضي وفي اليوم الثالث شرعت في الرحيل إلى جدة واستكملت كل مستلزمات رحلتي خلال طريقي إلى المنطقة الساحلية كنت أشبه بأسير في الصحراء! امتدت إقامتي بجدة إلى ثلاثة أسابيع بالرغم من انتشار بعض الأمراض المعدية وعدم توافر الأمن على الإطلاق! في منتصف أكتوبر عدت إلى مكة بصحبة غلام اشتريته! وهذا العبد كان ضمن قافلة قادمة من «سواكن» وأخذت معي حمولة جمل من المؤن في معظمها: طحين وبسكويت وزبد وهي تعادل في جدة ثلث ثمنها في مكة!

فور وصولي استأجرت شقة مناسبة بأحد أحياء المدينة يسمى «حارة السفلة» وأستمتع هنا بمشهد عدة أشجار ضخمة تجتمع أمام نوافذ شقتي.. في هذا المكان أستمتع باستقلال وحرية أحسد عليهما! لا أعرف سوى القاضي وحاشيته!.. والباشا وبلاطه بقصر الطائف منذ موسم الحج أتدد فقط على اجتماع من ذلك النوع الذي يسمح لي بالامتزاج بحشد من الحجاج الأجانب القادمين من كل بلاد العالم وإذا سئلت عن جنسيتي «وهذا أمر نادر الحدوث في مكان كهذا مليء دائماً بالغرباء» أقدم نفسي وتبواضع كعضو بالفيلق المملوكي بمصر! ووجدت من الأفضل أن أتجنب هؤلاء الأشخاص الذين يعرفون جيداً هذا البلد وربما يمكنهم ملاحظة واكتشاف الأكذوبة! وانتحال شخصية مزيفة أمر شائع بين معظم الرحالة في الشرق وحيث كل واحد منهم يتظاهر بالفقر ليتجنب استغلاله خاصة في مكة!

خلال كل رحلاتي بالشرق لم أستمتع على الإطلاق وبكل معنى الكلمة مثلما استمتعت بمكة!.. وبالرغم من حالتي الصحية التي لم تسمح لي بالإفادة من كل المزايا التي أتيت لي! وأود أن أعرض وصفاً للمدينة وسكانها ومناسك الحج ثم استأنف سرد تفاصيل رحلتي!..

وصف مكة

«المشرفة»... «البلد الأمين»... الفيروز ابادي: مؤلف «القاموس المحيط» الشهير ألف بحثاً عن الأسماء المختلفة لمكة.. وتقع هذه المدينة بواد رملي ضيق اتجاهه الأساسي من الشمال إلى الجنوب لكنه يحيد ناحية الشمال الغربي عند أقصى جنوب المدينة يتراوح عرض هذا الوادي ما بين مائة وسبعمئة خطوة

والحاج إبراهيم في مقبرة خاصة في الجنوب الشرقي من باب النصر.. الملاصق للقاهرة الفاطمية.

ومؤلفاته هي: رحلات في بلاد النوبة والسودان ١٨١٩ ورحلات في سوريا والأرض المقدسة ١٨٢٢ ورحلات في بلاد العرب ١٨٢٩ وملاحظات عن البدو والوهابيين ١٨٣٠ والأمثال العربية ١٨٣٠ ومن كتابه الشهير «رحلات في بلاد العرب».. نقدم هنا هذه الصفحات من رحاب مكة والمدينة. العمرة.. وقد روى لنا بوركهارت انطباعاته عن مناسك العمرة فقال: «وبعد الانتهاء من طقوس قص الشعر يكون الزائر متأهباً للإحرام فيطرح عنه ملبسه المعتاد وإذا شاء فليبدأ من هنا بالقرب من المروة وعلى الفور في أداء مناسك العمرة في هذه الحال يرتدي زي الإحرام ويصلي ركعتين وربما في حالات نادرة خلال مناسك الطواف والسعي يمكن للزائر الذي حل به الإجهاد والرهق أن يحمله شخص أو أكثر أو يحمل على محفة. بعد ذلك يحق للزائر أن يرتدي ملبسه العادية لكن عليه في أي يوم لاحق «التعجيل أفضل» أن يستأنف الإحرام وينفس الطقوس التي لاحظتها في الانطباع الأول يتوجه إلى العمرة من مكان يبعد عن مكة نحو ساعة ونصف فيؤدي ركعتين في مصلى صغير وطول الطريق يظل ينشد صحبات دينية تسمى «التلبية».. وتبدأ بهذه الكلمات: «لبك اللهم لببب» ويجب عليه أن يتم الطواف والسعي مرة أخرى وأن يحلق رأسه بالكامل ثم ينضو عنه زي الإحرام مختتماً هذه الطقوس.

الزيارة للعمرة فريضة واجبة لكن بعض الناس بالرغم من ذلك لا يلتزمون بها. في اليوم الثالث من وصولي إلى المدينة رغبت في المشي عند منتصف الليل انسب الأوقات خلال فصل الصيف.

في موسم الحج تعاد كل هذه المناسك عقب العودة من وادي منى وبعد أخذ قسط من الراحة في مكة لا بد من الطواف بالكعبة فالتقيام بهذا التقليد في غاية الأهمية بعض الغرباء المقيمين في مكة يؤدون هذا المنسك مرتين يومياً في المساء وقبل بزوغ النهار!

والزيارة للعمرة كانت كذلك تقليداً قديماً وقد أبقى «محمد» على هذه العادة المألوفة ولقد حل بي الإرهاق عقب أداء مناسك الطواف والسعي حلق جزءاً من شعر رأسي وظللت جالساً بمحل الحلاقة ولا أعرف مكاناً آخر للراحة!..

خلال شهر رمضان ألف مصباح تضيء الجامع الكبير تجعل من الليل أمناً لكل الغرباء في مكة والليل بعد انقضاء رمضان لا يقدم تلك الاستعراضات البراقة والاحتفالات

بقلم: عرفة عبده علي

مع بدايات القرن التاسع عشر تعدى الانجذاب إلى الشرق مرحلة الدهشة والانبهار لدى الرحالة الأوروبيين إلى محاولة اكتشاف جديد للشرق القديم والرغبة في معرفة أدق عن الآخرين.

ما بين روائع آيات الماضي ومعاهد التاريخ من ضفاف النيل الخالد وطور سيناء إلى بيت لحم والناصرية وبيت المقدس إلى مكة والمدينة إلى ما يحف بهذه الأصقاع من آثار مقدسة وما نهض في أحضان هذا التاريخ من إبداعات فكرية وحضارية.. تكونت حصيلة ضخمة من معارف أوروبا عن الشرق شكلت ما عرف بـ «علم الاستشراق» وتلقى المستشرقون تدريباً أكاديمياً مكثفاً وأصبح لكل جامعة أوروبية برنامج دراسي كامل في الاستشراق وقد حظي هذا الاتجاه بالدعم المالي من الحكومات والجمعيات والمؤسسات العلمية. كذلك لا يمكننا تجاهل الدور الكريه الذي لعبه هؤلاء المستشرقون في التمهيد للاستعمار الأوروبي وتوسعه فكانت عيونهم تجوس بلاد الشرق ولم يكن ما كتبوه مجرد تسجيل لانطباعاتهم فنجد كثيراً من التفاصيل في عرض دقيق للجغرافيا السياسية والاقتصادية وفحص للتقاليد وأنماط السلوك ودراسة للأوضاع الاجتماعية والثقافية والإدارية والاستحكامات الدفاعية لا تخلو من نوازع سياسية واستكشاف لما يحقق مصالح دولهم!

«بوركهارت» أو الشيخ إبراهيم!

من أوائل الرحالة المستكشفين لبلاد العرب في عصر الإمبراطورية العثمانية المستشرق «جون لويس بوركهارت» الذي ولد بمدينة «لوزان» بسويسرا في ٢٤ نوفمبر ١٧٨٤ وعندما أتم دراسته الأولية التحق بمدرسة «نوف هوتيل» الثانوية وفي عام ١٨٠٠ التحق بجامعة لبيزيغ ثم درس بجامعتي لندن وكمبريدج اللغة العربية وعلم الفلك وعلم المعادن والكيمياء والطب والجراحة قبل أن ترشحه «الجمعية الإفريقية» للقيام برحلة استكشاف في إفريقيا. وأطلق لحيته واتخذ هيئة شرقية وفي فترات الراحة بين أعماله كان يتدرب على القيام بجولات طويلة سيراً على قدميه وعرض نفسه كثيراً لأشعة الشمس وتوسد الأرض وعاش على الأطعمة البقولية ودرّب نفسه على مقاومة العطش.. وفي ٢ مارس ١٨٠٩ غادر إنكلترا ليقتضي ثلاث سنوات في سوريا متخفياً في زي تاجر مسلم وفد من الهند باسم الشيخ «إبراهيم» مزوداً بتوصيات من إدارة شركة الهند الشرقية وتنقل ما بين حلب ودمشق وتعمق في دراسة اللغة العربية وآدابها ثم توجه إلى لبنان وحوارن وكان أول أوروبي يشهد آثار «البتراء» ثم سلك طريق الحج إلى القاهرة وقد حالت ظروفه الصحية دون أن يواصل رحلته إلى فزان والنيجر الهدف الرئيسي وقام برحلة إلى بلاد النوبة ومنها اخترق الصحراء إلى «سواكن» ثم عبر البحر الأحمر إلى جدة وأنجز رحلته في بلاد العرب «١٨١٤ - ١٨١٥» زار فيها مكة والمدينة أعقبها برحلة إلى سيناء وخليج العقبة ثم استقر في القاهرة حيث لا تزال ماثلة آثار قدمي نابليون على ضفاف نيل مصر ووافته المنية في ١٥ أكتوبر ١٨١٧ ودفن بلقب الشيخ

• الرحالة بوركهارت

